مؤسسة الدراسات الفلسطينية
Institute for Palestine Studies
مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 13، العدد 51 (صيف 2002)، ص 92
www.palestine-studies.org

سائق الجرّافة*

[.....]

في اللحظة التي سقتُ فيها الجرافة إلى داخل المخيم [....] أصبت بالجنون. واختفى فوراً كل اليأس الناجم عن وضعي الشخصي. كل ما تبقى كان الغضب على ما حدث لرفاقنا. وأنا مقتنع حتى الآن، وكذلك كل من كان معنا، بأنه لو سمح لنا بدخول المخيم في وقت أبكر، بكل قوتنا، لما قتل أربعة وعشرون جندياً في هذا المخيم.

[.....]

لم يكن في استطاعتك التنبؤ بمكان العبوات الناسفة. لقد حفروا (المقاتلون الفلسطينيون) حفراً في الأرض وزرعوا العبوات. ما إن تبدأ بسياقة الآلية حتى ترتطم بأنبوب سمكه ثلاث بوصات مسدود باللحام من طرفيه. وما إن تلمسه حتى ينفجر. كان كل شيء مفخخاً. حتى جُدُر المنازل. إلمسها فقط فتنفجر. أو يطلقون النار عليك لحظة دخولك. كان هناك عبوات ناسفة على الطرق، وتحت الأرض، وبين الجُدُر. عندما تفتح فتحة ينفجر شيء ما. شاهدت قفص عصفور ينفجر في محل لبيع الحيوانات الأليفة، حيث كنا نشق طريقاً. قفص طائر. شعرت بالأسف تجاه العصافير. لقد زرعوا العبوات في كل مكان.

بالنسبة إليّ، داخل جرافة الـ "D-9"، لم يكن لذلك أي تأثير. لم يهمّني شيء. تسمع صوت الانفجارات فقط. لم تكن شحنة متفجرات زنتها 80 كغ لتستطيع أن تفعل شيئاً سوى هز سكة الجرافة. وزن الجرافة ثلاثة أطنان ونصف طن. إنها وحش. الدبابة يمكن أن تصاب في البطن. بطنها حساس. بالنسبة إلى الجرافة، يجب أن تنتبه فقط لقذائف الآر. بي. جي.، أو لشحنة متفجرات زنتها 50 كغ توضع على السقف. لكني حينها لم أفكر في ذلك. كل ما كان يهمني هو ألاّ يخاطر هؤلاء الجنود بحياتهم لمجرد أن يأكلوا أو يشربوا شيئاً.

(*) **المصدر:** موقع غوش شالوم في الإنترنت: http://www.gush-shalom.org (مترجم عن الإنكليزية).
مقطع من وثيقة فريدة نشرتها صحيفة "يديعوت أحرونوت" في عددها الصادر بتاريخ 2002/5/31 وترجمتها إلى الإنكليزية منظمة "غوش شالوم"، وهي عبارة عن شهادة سائق إحدى الجرافات التي شاركت في هدم مخيم جنين. وتكشف هذه الشهادة عن نمط شخصية هذا الجندي، وظروف حياته، ويظهر منها أنه شخص محبط، سكير، عاطل عن العمل، من مؤيدي الليكود، وتواق إلى الانتقام من الفلسطينيين. ويغني تعليق "غوش شالوم"، المنشور بعد الشهادة، عن أي تعليق على الجيش الذي أرسله.

لقد أحببت هؤلاء الفتيان. كنت مستعداً لأن أفعل بجرافتي أي شيء يطلبونه. كنت أستجدي تكليفي القيام بعمل ما: "دعوني أنهي بيتاً آخر، أفتح طريقاً آخر."

وقد حموني في المقابل. كنت أغادر الجرافة من دون سلاح، من دون شيء. أدخل ماشياً، ببساطة. قالوا لي إنني مجنون، لكنني قلت: "أتركوني وشأني. على كل حال، السترة الواقية لن تنقذني." هكذا كنت أعمل. حتى من دون قميص، نصف عار.

أتعرفون كيف صمدتُ 75 ساعة؟ لم أنزل من الجرافة. لم تكن عندي مشكلة تعب، لأني كنت أشرب الويسكي طوال الوقت. كنت أحتفظ دائماً بزجاجة في الجرافة. كنت وضعت الزجاجات في حقيبتي مسبقاً. الجميع أخذوا ثياباً معهم. أمّا أنا، فقد كنت أعرف ما ينتظرني هناك، ولذا أخذت الويسكي وقليلاً من الطعام.

ثياب؟ لم يكن لي حاجة بها. كان يكفيني منشفة. على كل حال، لم يكن في استطاعتي مغادرة الجرافة. تفتح الباب، تصيبك رصاصة. مدة 75 ساعة لم أفكر لا في حياتي العائلية، ولا في المشكلات كافة. اختفى كل شيء. أحياناً كانت تخطر ببالي صُوَر من الهجمات الإرهابية في القدس. لقد شهدت بعضها.

ما معنى "فتح طريق"؟ معناه مسح مبانٍ على الجانبين. لا يوجد خيار آخر، لأن الجرافة كانت أعرض جداً من أزقة المخيم. لكنني لا أبحث عن أعذار، أو عن شيء من هذا القبيل. يجب أن "تحلقها." لم أكترث قط لهدم منازلهم، لأن ذلك أنقذ حياة جنودنا. عملت في المكان الذي ذُبح فيه جنودنا. لم يقولوا كل الحقيقة عما جرى. لقد حفروا في الجُدُر حفراً للمدافع الرشاشة. وكل من نجا من العبوات أُطلقت النار عليه من هذه الحفر.

لم أشعر بشفقة على أحد. كنت مستعداً لأن أمحو بالجرافة أي شخص من الوجود. وما كان يهمني فقط هو ألاّ يعرّض جنودنا أنفسهم للخطر. هذا ما قلته لهم. كنت خائفاً على جنودنا. كان في استطاعتك أن تشاهدهم نائمين معاً، 40 جندياً في منزل، محشورين. تعاطفت معهم. لهذا السبب لم أكترث قط لهدم كل البيوت التي هدمتها – وقد هدمت الكثير. في النهاية، أنشأت ملعب كرة قدم هناك.

هل هذا صعب؟ كلا إطلاقاً. لا بد من أنك تمزح. أردت تدمير كل شيء. رجوت الضباط بواسطة اللاسلكي أن يسمحوا لي بهدم المخيم كله، من أوله إلى آخره. أن أسوّيه بالأرض. لا تتخيلوا أنني كنت أريد القتل. المنازل فقط. لم نؤذ الذين خرجوا من المنازل التي كنا بدأنا هدمها وهم يلوحون بأعلام بيض." خوزقنا" فقط أولئك الذين أرادوا القتال.

لم يرفض أي شخص أمراً بهدم أي منزل. لا يوجد شيء كهذا. عندما كان يُطلب مني هدم منزل ما، كنت أغتنم الفرصة لهدم بضعة منازل أُخرى، لا لأنني كنت أريد

ذلك وإنما لأنه عندما يُطلب منك تدمير منزل ما، تكون هناك عادةً منازل أُخرى قبله، وبالتالي لا توجد طريقة أُخرى. كنت مضطراً إلى فعل ذلك حتى لو لم أشأ؛ لمجرد أنها كانت تقف في طريقي. عندما كان عليّ أن أهدم منزلاً، كنت أفعل ذلك مهما جرى. وصدقوني إن قلت إننا لم ندمر إلاّ القليل. كان المخيم بأكمله مزروعاً بالعبوات الناسفة. وهذا، في الواقع، أنقذ حياة الفلسطينيين أنفسهم، لأنهم لو عادوا إلى منازلهم لانفجرت بهم.

أمضيت ثلاثة أيام وأنا أهدم وأهدم فقط. المنطقة كلها. هدمت كل منزل أُطلقت منه النار. وكي أهدمه كنت أدمر بضعة منازل أُخرى. تم تحذيرهم عبر مكبر الصوت بأن يغادروا المنزل قبل مجيئي. لكنني لم أعط أحداً فرصة. لم أنتظر. لم أكن أوجّه إلى المنزل صدمة واحدة وأمهلهم ليخرجوا. كنت أصدمه بأقصى قوة كي أهدمه في أسرع وقت ممكن. كنت أريد أن أصل إلى منازل أُخرى، أن أصل إلى أكبر عدد ممكن. ربما كان غيري منضبطين أكثر، أو هكذا يدعون. على من يضحكون؟ أي شخص لو كان هناك ورأى جنودنا في المنازل لفهم أنهم كانوا في فخ مميت. كنت أفكر في إنقاذهم. لم أكترث للفلسطينيين قط، لكنني لم أكن أهدم من دون سبب. كل ما فعلته كان بأوامر.

كثيرون من الناس كانوا داخل المنازل التي بدأنا تدميرها. كانوا يخرجون من المنازل بينما نحن نعمل على تدميرها. لم أر بعينيّ أناساً يموتون تحت سكة الجرافة، ولم أر منزلاً يسقط على أناس في قيد الحياة. لكن لو كان هناك أحد لما اكترثت لذلك البتة. أنا على يقين من أن أناساً ماتوا داخل تلك المنازل، لكن كان من الصعب أن نرى؛ فقد كان هناك غبار كثيف في كل مكان، وعملنا كثيراً خلال الليل. كل بيت كنت أهدمه كان يبعث السرور في نفسي، لأني كنت أعلم أن الموت لا يهمهم، لكن بيوتهم تهمهم. عندما تدمر منزلاً فمعنى ذلك أنك تدفن 40 أو 50 شخصاً لأجيال، وإذا كنت آسفاً على شيء فأسفي هو على عدم هدم المخيم بأكمله.

لم أتوقف لحظة واحدة. حتى عندما كان يحين موعد الاستراحة لساعتين كنت أصر على الاستمرار. جهّزت الجرافة بمكبس لتدمير مبنى مؤلف من أربع طبقات. وفي إحدى المرات حرفتُ الجرافة بحدة نحو اليمين وانهار حائط بأكمله. فجأة، سمعت صراخاً في اللاسلكي: "كردي، إنتبه! هؤلاء نحن!" تبين أن رجالنا كانوا في الداخل، ونسوا إعلامي بذلك.

كنت في غاية الرضى. استمتعت بذلك حقاً. أذكر أنني هدمت جداراً لمبنى من أربع طبقات، وانهار على جرافتي. صرخ زميلي طالباً مني العودة إلى الوراء، لكني تركت الجدار يسقط علينا. كنا نذهب إلى أطراف المباني ثم ندكّها. وعندما كنا نواجه صعوبة

كنا نطلب قذيفة دبابة.

لم أستطع التوقف. كنت أريد أن أعمل وأعمل. كان هناك ضابط من لواء غولاني يصدر الأوامر إلينا باللاسلكي – لقد دفعته إلى الجنون. كنت أطلب تكليفي المزيد والمزيد من المهمات. نهار الأحد، بعد انتهاء القتال، تلقينا أوامر بسحب الجرافة من المنطقة ووقف العمل على "ملعب كرة القدم"، لأن الجيش لم يشأ أن ترانا عدسات التصوير والصحافة ونحن نعمل. انزعجت فعلاً لأنه كانت لديّ خطط لتحطيم اللافتة الموضوعة عند مدخل جنين – ثلاثة أعمدة تحمل صورة عرفات. لكنهم سحبونا نهار الأحد قبل أن يتسنى لي القيام بذلك.

كنت أستفزهم كي يعطوني مزيداً من العمل. كنت أقول لهم باللاسلكي: "لماذا تتركوني أرتاح؟ أريد مزيداً من العمل." طوال الوقت كنت مريضاً فعلاً. كانت حرارتي مرتفعة. عدت من جنين تعباً جداً، كأنني ممزق إلى أشلاء. وفي اليوم التالي رجعت ثانية. كان أحد الرجال مريضاً فتطوعت للمساعدة. عدت إلى هناك. وعندما رآني قائد الكتيبة أصيب بالصدمة. سائقو الجرافات الآخرون أصيبوا جميعاً بالانهيار وكانوا بحاجة إلى الراحة. أنا أردت المزيد.

كنت في غاية الرضى في جنين، استمتعت كثيراً. كان الأمر بمثابة تعويض عن 18 عاماً من البطالة بثلاثة أيام. جاءني الجنود وقالوا: "شكراً جزيلاً لك يا كردي، شكراً جزيلاً." شعرت بالحزن على [الجنود] الثلاثة عشر. لو كنا دخلنا المبنى الذي نصب لهم الكمين فيه لكنا دفنّا كل أولئك الفلسطينيين أحياء.

كنت دائم التفكير في جنودنا. لم أشعر بالأسف على كل أولئك الفلسطينيين الذين تُركوا بلا مأوى. أسفت فقط على الأطفال، الذين لم يكن لهم ذنب. كان هناك طفل جريح أطلق العرب عليه النار. أتى رجل إسعاف من لواء غولاني وغيّر ضمادته، حتى تم إجلاؤه. لقد اعتنينا بهم، بالأطفال. أعطاهم الجنود حلوى. لكني لم أشعر بشفقة تجاه آباء هؤلاء الأطفال.

أذكر الأم التي عُرضت صورتها على شاشة التلفزة وقالت أنها ستنجب أطفالاً كي يفجّروا أنفسهم في تل أبيب. سألتُ النساء الفلسطينيات اللواتي شاهدتهن هناك: "ألا تخجلن من أنفسكن؟"

بعدما أنجزت العمل، غادرت الجرافة. كوّمت بعض الثياب وخلدت إلى النوم. اعتنوا بي، كيلا تدهسني دبابة أو آلية ما. تعب الـ 75 ساعة الماضية كله حلّ عليّ دفعة واحدة. ما فعلته كان مثيراً جداً. وما يشهد على أنني قمت بعمل جيد في تشغيل الجرافة أن الجنود جاؤوا لعندي بعدما انتهى كل شيء وقالوا: "شكراً لك".

تعليق "غوش شالوم"

("كتلة السلام")

هذه هي الرواية المذهلة التي رواها موشيه نسيم بنفسه، وهو أحد المتحمسين لكرة القدم ومشاغب دائم، استجدى قادته في قوات الاحتياط منحه فرصة المشاركة في "العمل المثير (Action).

ما قصده بـ "العمل المثير" هو الدمار الواسع الذي قام به الجيش الإسرائيلي في الكثير من المواقع، وخصوصاً في مخيم جنين للاجئين.

أُرسل إلى جنين راكباً جرافة هدم وزنها 60 طناً، ومشحوناً بإحباط مكبوت عمره 16 عاماً، ومزوداً بالويسكي، بعد أن تلقى تدريباً لمدة ساعتين على استخدام تلك الآلية المدرعة.

"تدريب يكفي لسياقة الجرافة وتسوية الأرض"، كما يشهد هو نفسه في المقابلة.

لربما تكون قصته مفرطة في التطرف، وينبغي لهذا الرجل الإجابة عن الكثير من الأسئلة الخطرة. لكن موشيه نسيم لا يختلف كثيراً عن الآلاف من الشرسين والمحبطين، المتحمسين لكرة القدم، والذين ينشرون الرعب في مدن أوروبية بعد كل مباراة.

لكن، طبعاً، لا يمكن تخيّل أن يرسل الجيش البريطاني سكيراً محبطاً، متحمساً لفريق مانشستر، إلى بلفاست راكباً جرافة من طراز "D-9".

لذلك، فإن الأسئلة المقلقة فعلاً يجب أن توجه إلى النظام الذي أرسله إلى مخيم جنين في مهمة التدمير، وهذا النظام هو الجيش الإسرائيلي.

أي جيش يضع جرافة هدم وزنها 60 طناً، ويبلغ ثمنها ملايين الدولارات، في تصرف مثل هذا الشخص، الذي لم يسبق له أن عمل على جرافة كهذه؟

كيف أمكن لهيجانه أن يستمر، من دون أن يوقفه أي ضابط؟

كيف يمكن لجيش كهذا أن يصر على أنه "الجيش الأفضل خُلُقاً في العالم"؟

هل تلقي هذه المقابلة المزيد من الضوء على رفض إسرائيل السماح بالتحقيق في الأعمال التي ارتكبتها في جنين؟

وماذا حدث فعلاً في جنين؟

[.....]. ■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf